-٢-

دَكُّ المراحيض!

obeikandl.com

obeikandl.com

عندما تكون بدينا في العالم العربي يغشاك إحساس دائم بأن لا أحد يحفل بك، وكثيراً ما يصل تفاعلك الجَمعي منتهاه، حتى تبلغ مدىً لا تحفل فيه أنت بنفسك، ولو فعلت، لربما لم تكتنز أرطالاً من الشحوم تنثرها بخيلاء وعدم اكتراث في أرجائك!

سلسلة المعاناة، وأحاديث الإحراج، بحر لا ساحل له.

وإن كنتُ تحدثت في الفصل الأول عن معاناة السمين بين السماء والأرض، فإن الإخلاد إلى الأرض يحمل هماً أشد، إذ هو في النهاية نزول، وليس سامٍ كمن هبط.

أذكر أنني كنت في رحلة استجمام مع ثلة من الأصدقاء إلى بيروت في منتصف التسعينيات. يممنا وجوهنا صوب الشرقية، وهناك التأم شملنا في فندق جميل محاذٍ للشاطئ.

بعد ساعات من الوصول، ولفرط إنسانيتي وجدتُني مضطراً لاستخدام دورة المياه. هناك صنف من المراحيض، أجلكم الله، لا يتكئ في ثقله على الأرض، بل على الجدار. أعتقد أن أفضل وصف يمكن أن أسديه لمرحاض كهذا، هو أنه غبي، وفي التفاصيل بيان للسبب.

جلست على المرحاض لأقضي حاجتي ، لكنني قبل أن أفعل قضيت عليه!

وجدتني أنا، والمرحاض في درجة واحدة متساويين على الأرض، إلا أنه انتثر أشلاءً، وليتني كنت مثله، فربما تخلصت من بعض أشلائي بدعوى نسيانها!

سمع الرفاق صوت الدويّ فظنوه انفجاراً. كان الطيران الإسرائيلي قبلها بليال معدودة يخترق الأجواء اللبنانية، لكن الصِحاب لم يتخيلوا أن طيران جسدي حطم المرحاض تحطيماً.

بدا لي الآن، أني لو كنت حينها طائرة لما جاوزت الـ B) (52، حجماً وليس في القدرات بطبيعة الحال.

ضحك الأصدقاء عليَّ طويلاً، وكان هذا ما جرت به عادتهم، حفظ الله لهم جميل عاداتهم وخلصني وإياهم من قبيحها.

ترى صديقك صغيراً عندما يقهقه عليك، وأنت في حالة مأساوية، ثم تتخلل ضحكاته المجلجلة عبارة فاترة يقول فيها: (عسى ما تعورت؟)، أي أرجو أنك لم تصب؟!

- لا يا شيخ! (عسى ما تكلفت يا اللطيف!). هذا لسان حالي.

في البداية كنت ألومهم كثيراً، ومع الوقت خففت عن نفسي كل ذلك، عندما تصورت نفسي مكانهم، وأرى حادثاً كهذا، لا بد أن أضحك، فلحظات البهجة تضمحل يوماً بعد آخر.

هذا درس جديد تعلمته مع الوقت. قبل أن ألوم غيري، أحاول أن أضع نفسي مكانه، فإن كنت سأفعل مثله أو نحوه، فلا داعيَ للوم بتاتاً، وبخاصة أن المرء لو سلَّم نفسه للعتب لأفنى سني عمره ولحظات حياته يعتب على هذا ويعاتب ذاك، وقديما قيل:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً

صديقك، لم تلق، الذي لا تعاتبه

لم أعبأ كثيراً بتصرف رفاقي بالقدر الذي حملت فيه هم العاملين في الفندق.

كنت أتمنى لو جاءني مدير الفندق بفاتورة المرحاض، ولو ضاعف قيمته ثلاث مرات، لأدفع القيمة وأتخلص بالمال من الحرج. لكنه لم يفعل، وليته فعل!

خرجنا للتنزه ساعات في بيروت، عدت بعدها إلى الغرفة فابتدأت نشاطي بدورة المياه، لأرى ماذا حدث؟ !

وجدتهم أصلحوا المرحاض، وأبدلوه جديداً! لم ينبس أحد من العاملين في الفندق ببنت شفة، ولا تفوه بكلمة واحدة. جميل أن يكون العمل هو المتحدث!

فكرت جدياً أن أقترح عليهم أن يعتمدوا مستقبلاً على مراحيض تستند على الأرض لا إلى الجدار، لكني بعد هنيهة تفكير، قلت لنفسي: "يا بجاحتك يا أخي. تقتل القتيل وتمشي في جنازته!".

توقفت عن فكرة إسداء النصائح بالمجان، هذه التي بدأت أستهجنها كما لم أكن من قبل.

المتبرعون بالنصائح، يسدونها ذات اليمين وذات الشمال، هم أناس ثقلاء، وإن خفّت أوزانهم. يمارسون في العقل الباطن من خلال نصائحهم التافهة هذه إقناعاً لأنفسهم بأنهم أفضل ممن ينصحون. "من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر"!.

كانت حالتي مريرة عندما أدخل الفندق، وأمخر عباب

بهوه متجهاً إلى المصاعد، أو حتى عندما أهم بالخروج منه.

نظراتي لا تفارق الأرض كالمنكسر، مع أني أنا من كسر!

كنت أنظر في الأرض، مع أن لبنان بلدٌ يُلزمك بأن تُبقي عينيك مفتوحتين حتى لا تُفوِّتَ جميلاً ولو بمجرد أن ترمش.

لم أكتشف قيمة الشماغ كما فعلت في تلك الأيام. وددت لو كنت منخرطاً في الحرس الوطني السعودي[1] لأعتمر شماغاً فوق بدلتي، لا لشيء إلا لأتلطم (أتلثم بالشماغ موارياً به وجهي) حياءً في الدخول وفي الخروج.

بعد جولة تفكير أخرى، قلت لنفسي: ما أعظم

(١) أرسل إلي بعد أن نشرت جزءاً من هذا الكتاب في مقال أحد ضباط الحرس الوطني معاتباً، لأنه اعتقد أني هنا أسخر من الزي الذي يلبسه العسكريون في الحرس الوطني السعودي، حيث يعتمرون الشماغ فوق البدلة العسكرية. ولا أدري كيف تصور هذا الضابط الفاضل أني أسخر هنا من هذا الزي. وقد مررت المقطع على ثلاثة أشخاص مختلفي المشارب والأنماط الفكرية، فلم يقل أحدهم بما قاله الضابط المعاتب!

obeikandl.com

سذاجتك! الشماغ سيواري وجهي، لكن من لي بمن يواري هذا الجسد المترامي، حتى لا يعرفوا أن صاحبه هو من كسر المرحاض... فقط، بالجلوس عليه!

تذكرت أن هناك أنواعاً من العقاب النفسي أشد أثراً من العقاب الجسدي.

استحضرت مرحلة الصبا يوم كان والدي -حفظه الله- يتعاطى مع خطئي بالتجاهل. كم تمنيت لو ضربني، أو وبخني، لأسلم من سيوف سكوته وسياط تجاهله. ربما ورث ذلك من جدتي -رحمها الله- فقد كانت تكرر بلهجتها القصيمية: "الخسران يُقّطِّع المُصران". أي أن تجاهل المرء، يجعل ألمه كتقطيع مصرانه!

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فقد كنت أيام الدراسة أسرح بتفكيري كلما جاء درس الجغرافيا، ذات الحالة استمرت عندما أستمع إلى تحليلات بعض المعلقين، أو أشاهدها قراءة. فهم عندما يتحدثون عن مساحة السعودية يشيرون إلى أنها مترامية وشاسعة. كان أول شيء يقفز إلى ذهني هو جسدي أكثر الأشياء التي عرفتها ترامياً وأقرب المناطق الشاسعة لي.

شكّلَت هذه الحالة الشعورية الخاصة، ارتفاعاً عميقاً في حسي الوطني، وأرجو ألاّ يؤثر ضمور جسمي في فقد هذا الإحساس.

إشكاليات ملابس البدين!

أما الحديث عن الملابس بالنسبة لسمين مثلي، فهو أيضاً، ليل ليس له آخر. فالأسوياء أجساداً، عندما يتسوقون في محلات الملابس، يبحثون عن ما يعجبهم، ثم يسألون عن المقاس المناسب لهم. أما أنا فكنت أسأل عن المقاسات التي تحتويني، ثم أختار منها، إن كان هناك مجال لخيارات، وما أقل ما يكون.

هذا في الزي الإفرنجي، أما في الثياب العربية، فثمن ثوبي يوازي ثوبين لشقيقي على سبيل المثال وذلك بالنظر إلى عدد الأمتار المستخدمة في الخياطة.

مشكلة انعدام الخيارات في الملابس الجاهزة يجعلك تلجأ إلى التفصيل والحياكة أو الخياطة، وهذه مشكلة أخرى، فليس كل خياط مُتقن، وإن أتقن تصميماً لم يتقن الآخر، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر.

المضطهدون في الأرض!

ولما سبق، فنحن مضطهدون معاشر البدناء وظيفياً، إذ نتساوى في الكوادر والسلالم الوظيفية مع غيرنا، رواتبنا وغيرنا سواءً بسواء، مثلاً بمثل، مع أننا نستهلك أضعافهم في الملبس والمأكل والمشرب والمركب. وللندرة ثمنها، فلا بد من دفعه، وإلا اضطررنا إلى خدش الذوق العام عندما نخرج إلى الشوارع زلطاً مُلطاً، وأشهد أن الذوق حينها سيصاب بشرخ لا مجرد خدش.

مازالت بعض المشاهد تتراءى أمامي، فعندما كنت أنوي السفر خارج السعودية، قبل أن أنتقل إلى دبي، أشرع بالطواف على محلات الملابس بحثاً عن مقاساتي، وما أكثر ما أعود من المولد بلا حمص ولا تبولة، ولا إيدام.

ذات يوم مررت ببائع شاطر، قال لي مرحباً بأسلوب تسويقي وطريقة دعائية، إن احتياجي عنده، فتهللت أساريري، وهششت به وبششت، ثم أخرج لي بنطالاً، فآخر، فثالثاً ورابعاً... وهكذا.

وكلما جربت أحدها في غرفة القياس وجدته مناسباً

للساقين لا لما فوقهما! فقلت له إنها لا تصلح. بعد عناء قال لي بلهجة شامية: "يا خيي إنتا كمان بدك تخس لك شويتين!".

أصابني خجل العذارى في مقتل، ووافقته قبل أن أخرج مطأطئ الرأس، وما أكثر ما كنت أفعل. تذكرت فندق بيروت ولازمتني حالة البهو وأفكاره من جديد.

أميركا تنتصر لي!

لم ينتصر لي أحد وأنا سمين كما فعلت أميركا، فبين كل محل (همبرغر وسوبر ماركت)، محل ملابس خاص بأصحاب المقاسات الضخمة. تجد محلات كهذه حتى في المدن الصغيرة. وهي مجهزة بما يكسوك من رأسك حتى أخمص قدميك، وبتعددية يندى لها جبين أصحاب الطيف الواحد.

ومن فرط لطفهم، فإنهم لا يسمون المحلات -هذه- بأسماء محرجة للبدناء، فلم أر يافطة كتب عليها "للأحجام غير الطبيعية"، أو "للبدناء فقط"، أو "إذا كنت سميناً فلا بد أن تدخل"! على العكس تماماً، إنها تسمى محلات

(بيج آند تول)، أي كبير وطويل، فكل من احتاج ملابس كبيرة أو طويلة، فنحن نخدمه.

لكن أميركا التي انتصرت لي باتت تعتبر الخطر المحدق بها، ليس الإرهاب، ولا أسامة بن لادن، وليست القاعدة، أو الزرقاوي، فقد جاء في تقرير نشرته في العام ٢٠٠٤ صحيفة "كريستيان ساينس مونيتور" بعثة لي الصديق الجليل بكر عويضة، أن السمنة هي أكبر الأخطار المتربصة بالولايات المتحدة.

الكراسي تجلب الصداع لرأسي!

وإذا كان في الملابس قصصاً، ففي المقاعد والكراسي مثلها وأكثر، حتى أصبحت الكراسي جالبة الصداع والألم لرأسي.

كم من كرسي دككته دكاً، حتى ظننت أن بيت الفخر العربي الشهير:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما

تخر له الجبابر صاغرين

إنما قاله عمرو بن كلثوم في مثلي والكراسي!

obeikandl.com

وكلما رجعت لنفسي اتهمت حصاتي، فيما يختص بدك الكراسي، فكرت أن المسؤولية تقع على من يستخدم كراسٍ مصنوعة من البلاستيك!

أيليق أن يجلس أكابر الناس، أو حتى أصاغرهم على البلاستيك؟ أي استهتار هذا بمقامات الناس ومقاعدهم؟!

وفي موضوع الكراسي، لطالما استهجنت صناعة كرسي صغير بجوانب محيطة به.

لقد شطح بي خيالي لعدم توافقها مع زياداتي فاعتبرتها، محاولة لتقييد المطلق، لا يجدر بالأحرار الرضوخ لها!

أقول ذلك بطبيعة الحال لأن دفتي الكرسي أو جانبيه المحيطين به يميناً وشمالاً تحول بيني وبين أن أجلس على الكرسي كما يفعل غيري ممن لم يحمل اللحم.

كم حاولت أن أجلس على هذه الكراسي، فوجدت أني لا أسقط في كامل المقعد بل أبقى عالقاً بين الدفتين!

ولذلك أقول بكل حسرة : كم من مطعم تمنيته ومنعتني منه كراسيه.

وكم أكلة عفتها، لا صدوداً عنها بل منعني منها مقاعد المطعم الذي يقدمها!

قبل أيام كنت أتابع قناة أميركية تعرض مقطعاً لفتاة في وزن طبيعي، ثم أجريت لها عمليات ماكياج سينمائية جعلتها تحمل أكثر من ١٥٠ كيلو جرام، وبدأت تمر بوسائل النقل العام، فتأخذ كرسياً وزيادة في القطارات، ولما ذهبت إلى مطعم صيني، لم تجد لها النادلة الصينية التي كانت عظماً بلا لحم كرسياً لتجلس عليه، ولما انصرفت من المطعم مكسورة الجناح، كانت الكاميرا الخفية تلتقط النادلة وهي تمد يديها يميناً وشمالاً لتصور أن هذه الفتاة سمينة بشكل لا يمكن تصوره، وهي تتندر على بدانتها.

وفي السياق ذاته، مازلت أذكر زميل دراسة أيام المرحلة المتوسطة، كان سميناً بشكل يصعب وصفه، ما يجعله يستخدم كرسيين بدلاً من واحد.

مع الوقت اصطلحت مع بعض من يشاركني هَمَّ الأرطال المتراكمة والمتراكبة على استخدام مقولة غير مأثورة: "خير الكراسي القوي المتين".

التقديم... للسمنة!

ولا يزال الحديث عن المقاعد، ففي السعودية عادة ما يمنح مقعد السيارة الأمامي للشخص الأهم. وهي عادة تخالف ما جرت عليه بقية الشعوب، حيث يجلس المعتنى به في المقعد الخلفي. وكم قُدِّمتُ للمقعد الأمامي على من هم أكبر مني سناً وقدراً ومقاماً ومهنية، للتخلص مني ومما أسببه لهم من ضيق أولاً، وتقديراً لظرفي الفيزيائي ثانياً.

سافرت مرة في رحلة صحافية، وكان ضمن الوفد الصحافي الأساتذة: تركي السديري، رئيس تحرير جريدة الرياض، وخالد المالك، رئيس تحرير جريدة الجزيرة، والدكتور هاشم عبده هاشم رئيس تحرير جريدة عكاظ، والثلاثة هم أكبر الصحافيين السعوديين سناً ووظيفة ومكانة، وكنتُ أُلِحُ على أن يتصدر أحدهم للمقعد الأمامي، لكنهم كانوا يتفضلون علي بالمكان، لأكفيهم شر الزحام والالتحام. عندما انتابتني حالة الألم حينها، رددت: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك».

على الجانب الآخر كان شعورٌ غامرٌ بالفرح يلامس شغاف قلبي. فجميل أن تكون كابن لهؤلاء الكبار، عمراً

ومهنيـة وتجـربة، ويؤهلك وزنك للتميـز عليهم في المقـعد.
أعترف الآن بحالة النشوة التي كانت تعتريني.

لا أظن السـمنـة تمنحك الكثيـر من حـالات الانتـشـاء، لكن هذه كانت إحداها.

obeikandl.com